

معوقات في مواجهة النظرية الأدبية الإسلامية

الحلقة التاسعة

د/ علي يوسف اليعقوبي

الحدث

تأسست الحركة الحداثيّة بجهود مجموعة من الأدباء السرياليين والرمزيين والماركسيين والفوضويين والعبثيين في باريس، منذُ مُنتصف القرن التاسع عشر الميلاديّ تقريباً، ولقيت هذه الحركة استجابة لدى الماديين والعلمانيين والمُلمّحين في الشرق والغرب معاً، حتّى وصلت إلى شرقنا العربيّ والإسلاميّ، وقد وُظف هذا المصطلح لوصف "الأجواء العامّة للأدب الأوروبيّ في القرن العشرين، واستُعمل من جانب آخر، في وصف حركة جارفّة مُعيّنة، غطّت الحضارة الأوروبيّة، وتؤكد "كرتر ود شتاين" أنّ هذه الكلمة هي خير ما يصف تكوين القرن العشرين وجوّه العام" (١).

الحداثيّة مصطلحٌ مُشاكسٌ ومُخادعٌ، وذلك لما يتضمّنه من إشعاراتٍ خَلابيةٍ، ودلالاتٍ أسيرةٍ برّاقةٍ، تُوجي بالتّجديد، والمعاصرة، والتّطوير من مكانٍ بعيدٍ، وهي مصطلحٌ برّاقٌ وجميلٌ، يبعثُ - بلوهلة الأولى - في النفس الأملَ والبشرَ والحياةَ، ولما يُفجّر جذورها (حدث) من جذوةٍ وتكرارٍ وتطوُّرٍ، وخروجٍ على العادة المملّة والمألوف المتكرّر... (والحداثيّة) وعلى الرّغم ممّا تُثيره مادّتها من تلك المعاني المُستبشرة الأسيرة، إلا أنّها مصطلحٌ التّبسّ على أذهان كثيرٍ من النّاس، حيث يُوجي بالتّجديد، والمعاصرة، والتّطوير (٢).

ولكن.. هل حقاً أنّ الحداثيّة التي يترنّم بها الأدباء، ويصدح بذكرها النّقّاد والمُعجبون في كلّ مكانٍ، تحملُ بين طيّاتها بُدُور التّجديد والمعاصرة، وتطوّر الأشكال الفنّيّة، في التّعبير والأداء، والاتّصاف بالحياة والجماهير، والنّبض بما في ضمير الأُمّة وأحاسيسها من آلامٍ وآمالٍ؟ كلا. (فالحداثيّة Modernism) ليست من ذلك كلّهُ في شيء (٣)، بل هي على النّقيض من ذلك كلّهُ، حيث أنّها تُمثّل "نظريّةً فكريّةً لا تستهدفُ الحركة الإبداعية وحدها، بل تدعو إلى التّمرّد على الواقع بكلّ جوانبه؛ السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة" (٤)، "والحداثيّة مثل الواقعيّة الاشتراكيّة، وبخلاف الشّعير الحرّ، مذهبٌ أدبيّ، له جذوره الفكريّة، وليس مُجرّد نمطٍ شكليّ لُغويّ.. " (٥) وهي في الأدب توصيفٌ لنتاجٍ أدبيّ، ذي خصائص ومواصفات مُعيّنة؛ شكلاً ومضموناً. "وتهدفُ الحداثيّة إلى إلغاء مصادِر الدّين، وما صدرَ عنها من عقيدةٍ وشريعةٍ، وتَحطيم كلّ القيم الدّينيّة والخلقيّة والإنسانيّة، بحجّة أنّها قديمةٌ وموروثةٌ، لتبني الحياة على الإباحيّة والفوضى

(١) مالكوم براد بري، وجيمس ماكفارلن - الحداثيّة - ترجمة: مؤيد حسن فوزي، ص ٢٣.

(٢) ينظر/ د. وليد قصاب - الحداثيّة في الشعر العربي المعاصر - ص ١٤.

(٣) السابق نفسه: ص ٨٧ (بتصرّف).

(٤) د/ محمد خضر عريف - الحداثيّة، مناقشة هادئة لقضية ساخنة - ط ١، ص ١٢.

(٥) د/ شكري عياد - المذاهب الأدبيّة والنقدية عند العرب والغربيين - ربيع الأول ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م، (سلسلة عالم المعرفة) ص ٦٢.

وَالْغُمُوضِ، وَعَدَمِ الْمَنْطِقِ، وَإِسَاعَةِ الْغَرَائِزِ، وَذَلِكَ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ وَالتَّفَاضُلِ إِلَى أَعْمَاقِ الْحَيَاةِ... وَ(هِيَ) تَمَثِّلُ نُرْعَةَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ، وَفِي عَدَاءٍ مُسْتَمِرٍّ لِلْمَاضِي وَالْقَدِيمِ، وَهِيَ إِفْرَازٌ طَبِيعِيٌّ لِعَزَلِ الدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْأُورُوبِيِّ، وَلِظُهُورِ الشَّكِّ وَالْقَلَقِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ" (٦)، وَتُؤَكِّدُ خَالِدَةُ سَعِيدُ ذَلِكَ، حَيْثُ تَرَى أَنَّ مَفْهُومَ الْحَدَاثَةِ يَتَعَدَّى مَسْأَلَةَ التَّجْدِيدِ الشَّعْرِيِّ أَوْ النَّثْرِيِّ، بَلْ تَرَى أَنَّ التَّجْدِيدَ فِي هَذِهِ الْجَوَانِبِ مَا هِيَ إِلَّا جُزْئِيَّاتٌ بَسِيطَةٌ، بِالنَّظَرِ إِلَى مَا تَطْرَحُهُ الْحَدَاثَةُ مِنْ قَضَايَا فِكْرِيَّةٍ ثَائِرَةٍ جَرِيئَةٍ، فَالْحَدَاثَةُ عِنْدَهَا "أَكْثَرُ مِنَ التَّجْدِيدِ، وَإِنْ كَانَ التَّجْدِيدُ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ الْحَدَاثَةِ، لَكِنَّهُ لَا يُشِيرُ إِلَى الْحَدَاثَةِ دَائِمًا، وَلَا يَكُونُ الْجَدِيدُ حَدِيثًا - بِالْمَعْنَى الَّتِي اسْتَقَرَّ لِلْحَدَاثَةِ - إِلَّا إِذَا كَانَ يَطْرَحُ الْقَضَايَا الْأَسَاسِيَّةَ لِلْحَدَاثَةِ، وَيَتَمَحَوَّرُ حَوْلَ الْمِفْصَلِ الصَّرَاعِيِّ الْفِكْرِيِّ لِلْحَدَاثَةِ... فَالْحَدَاثَةُ ثَوْرَةٌ فِكْرِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ مَسْأَلَةٍ تَتَّصِلُ بِالْوِزْنِ وَالْقَافِيَةِ، أَوْ بِقَصِيدَةِ النَّثْرِ، أَوْ نِظَامِ السَّرْدِ، أَوْ الْبَطْلِ، أَوْ إِطَارِ الْحَدَثِ، أَوْ تَثْوِيرِ الشَّكْلِ الْمَسْرُوحِيِّ... وَإِنَّمَا هِيَ تَعْرِيفٌ جَدِيدٌ لِلْإِنْسَانِ عِبْرَ تَحْدِيدِ جَدِيدٍ لِعِلَاقَتِهِ بِالْكُونِ، إِنَّهَا إِعَادَةُ نَظَرٍ شَامِلَةٍ فِي مَنْظُومَةِ الْمَفْهُومَاتِ، وَالنِّظَامِ الْمَعْرِفِيِّ، أَوْ مَا يَكُونُ صُورَةَ الْعَالَمِ فِي وَعْيِ الْإِنْسَانِ...، إِنَّهَا إِعَادَةُ نَظَرٍ فِي الْمَرَاجِعِ، وَالْأَدَوَاتِ، وَالْقِيمِ، وَالْمَعَايِيرِ" (٧)، وَلَوْ كَانَ مَعْيَارُ الْحَدَاثَةِ هُوَ الْخُرُوجُ عَلَى الْوِزْنِ الثَّقَلِيَّةِ، لَاسْتَوَتْ نَازِكُ الْمَلَائِكَةِ، وَسَعْدِي يُوسُفُ، وَلِذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ "قَضِّ الْوَهْمِ الشَّكْلِيِّ الَّذِي يَجْعَلُ كُلَّ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَةَ بِالشُّطْرَيْنِ، إِلَى الشُّطْرِ الْوَاحِدِ، شَاعِرًا مُعَاصِرًا، وَقَضِّ الْوَهْمِ الْمُضْمُونِيِّ، الَّذِي لَا يُؤَكِّدُ التَّمْيِيزَ دَاخِلَ الشَّعْرِ الْحَرِّ نَفْسِهِ، بَيْنَ شَاعِرَةٍ مِثْلَ نَازِكِ الْمَلَائِكَةِ، وَشَاعِرٍ مِثْلَ سَعْدِي يُوسُفَ..". (٨).

وَعَنِ الْمَدَى التَّغْرِيْبِيِّ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ الْحَدَاثِيُّونَ، فِي ارْتِمَاءٍ فِي أَحْضَانِ الْعَقْلِ الْغَرْبِيِّ نَرَى أَحَدَهُمْ يَقُولُ: "لَوْلَا أَنَّنَا نَمْتَلِكُ ثَرَاتًا عَرِيقًا فِي الشَّعْرِ، لَكَانَتْ إِحْدَى الْبَدِيهَاتِ أَنْ نَعُودَ بِشِعْرِنَا الْحَدِيثِ إِلَى أُصُولِهِ الْغَرْبِيَّةِ، وَلَكِنَّ هَذَا الثَّرَاثَ هُوَ الَّذِي تَسَبَّبَ فِي هَذِهِ "الْبَلْبَلَةِ" الَّتِي أَحَاطَتْ مَوْلِدَ الْحَرَكَةِ الْحَدِيثَةِ" (٩)، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ اعْتِرَافِ الْكَاتِبِ بِعِرَاقَةِ ثَرَاتِنَا، وَأَصَالَتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي تَنَاقُضٍ مَعَ الدَّاتِ، حِينَمَا يَرُدُّ هَذَا الشَّعْرَ الْأَصِيلَ إِلَى "جَذُورٍ غَرْبِيَّةٍ"، وَهَذَا إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الْمُسْتَوَى الْأَخْلَاقِيِّ الْمُتَدَنِّي الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ النُّقَادِ، ثُمَّ يُتَابَعُ فِي اعْتِرَازٍ بَالِغٍ بِأَنَّ "حَرَكَةَ الشَّعْرِ الْحَدِيثِ قَدْ اسْتَلْهَمَتْ حَدَاثَتَهَا مِنْ مُسْتَوَى الشَّعْرِ الْغَرْبِيِّ الَّذِي يُمَثِّلُ أَرْفَعَ مُسْتَوَى بَلْغَتِهِ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ.. وَلِذَلِكَ فَشِعْرَاؤُنَا لَمْ يَنْقَلُوا، أَوْ يَقْلُدُوا..". (١٠)، ثُمَّ يُؤَكِّدُ فِكْرَتَهُ حِينَمَا يَرَى فِي شِعْرَائِهِ نُسَخًا مُصَوَّرَةً مِنْ كِبَارِ شُعْرَاءِ أُوْرُوبَا، حَيْثُ يَقُولُ: "وَعِنْدَمَا أَقُولُ الشُّعْرَاءُ الْجُدُدُ، وَأَذْكُرُ مَفْهُومَ الْحَدَاثَةِ عِنْدَهُمْ، لَا يَرِدُّ عَلَى خَاطِرِي كَثِيرٌ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْجَدِيدَةِ، وَإِنَّمَا أَتَمَثَّلُ كِبَارَ شُعْرَاءِ الْحَرَكَةِ الْحَدِيثَةِ، مِنْ أَمثال: أَدُونِيسَ، بَدْرِ شَاكِرِ السِّيَابِ، صَلاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ، الْبِيَّاتِي، وَخَلِيلِ الْحَاوِي..".

(٦) د/ مانع الجهني - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة - ج ٢، ص ٨٧٧.

(٧) خالدة سعيد - الملامح الفكرية للحداثة - (مجلة فصول)، ٣٤، ص ٢٥، ٢٦.

(٨) د/ جابر عصفور - معنى الحداثة في الشعر المعاصر - (مجلة فصول)، ٤٤، ص ٣٧.

(٩) د/ غالي شكري - شعرنا الحديث إلى أين - ط ١، ص ١١٣.

(١٠) السابق نفسه: ص ١١٣.

عند هؤلاء سوف نعثر على اليوت، إزرا باوند، وربما على راسب من رامبو، وفاليري.. ولكننا لن نعثر على التراث العربي إلا في طبيعة اللغة العربية التي أخذت في الانصراع إلى ثورتهم" (١١).

والحادثة ليست صياغة فنية أدبية فحسب، ولكنها أعمق من ذلك، إنها فكرة مقترحة لإعادة صياغة الإنسان، وفق نظرة تمردية، على العقيدة والحياة؛ بقيمتها وثوابتها، وكل ما هو مألوف ثقافياً وحضارياً... إنها مشروع علماني؛ فكراً وسلوكاً، يهدف إلى إحداث دمار شامل لكل القيم الإنسانية (١٢)، بل هي نمط حضاري خاص، يتعارض مع النمط التقليدي، أي مع كل الثقافات والأعراف والأخلاق السابقة عليه. إنها الفن المتأني من عدم الاعتراف بالأمور الواقعية التقليدية، ومن تحطيم تكامل الشخصية الفردية، إنها الفن الذي ولدته الفوضى القائمة على استهجان بعض الظواهر العامة للفن... إنها فن اللافن، الذي يحطم الأطر التقليدية، ويتبنى رغبات الإنسان الفوضوية، التي لا يحدها حد (١٣)، فهي بهذا المفهوم تقيض تأثير على كل "التقاليد التي رسخت، وتتطوي على قلق دائم لا يريم، دائم لا يعفو عليه الزمن، وتتطوي على نوع من الهدم المستمر.. (١٤)، وإحراق للميراث "لأن كل ميراث يتشكّل، إنما يتحوّل إلى قوانين ثمارس القمع، وتقرض مفهوم المحرم" (١٥) كما يرى ذلك الشاعر الحداثي أدونيس:

أحرق ميراثي، أقول: أرضي
بكر، ولا قبور في شبابي
أعبر فوق الله والشيطان
(دربي أنا من دروب الإله، والشيطان)
أهتف: لا جنة لا سقوط بعدي
وأحو لعة الخطيئة (١٦)

وهذا يعني أن الحادثة لن تأخذ - بحال من الأحوال - بيد الفن إلى التحليق في فضاءات الإبداع، وإنما تسوقه إلى التهلكة المنظمة والمتصودة سقواً.

وكتب "م. ج. كونراد" سطوراً، تنم عن تهكم مريب بالدلالات الجديدة لهذا المصطلح، وبمن كان يستخدمه، موظفاً خليطاً من الاستعارات، التي كان يهدف من ورائها، إلى هجاء

(١١) د/غالي شكري - شعرنا الحديث إلى أين - ط ١ ص ١١٣.

(١٢) ينظر/ د. عدنان علي رضا النحوي - الأدب الإسلامي إنسانيته، وعالميته - ص ٢٩٣.

(١٣) مالكوم براد بري، وجيمس ماكفارلن - الحادثة - ترجمة: مؤيد حسن فوزي، ص ٢٧.

(١٤) إدوار الخراط - قراءة في ملامح الحادثة عند شاعرين من السبعينيات - (مجلة فصول) ع ٤، ص ٥٧.

(١٥) د/كمال أبو ديب - الحادثة، السلطة، النص - (مجلة فصول)، ع ٣، ص ٦٠.

(١٦) السابق نفسه: ع ٣، ص ٦٠.

القَادَةُ الجُدُّ للحدَاثة، حَيْثُ يَقُولُ: "الشَّعْرُ الحَقِيقِيُّ الآنَ: هُوَ فَنُّ بَارِعٌ فِي تَحْطِيمِ الْأَعْصَابِ، إِنَّهُ فَنُّ إِثَارَةِ الْأَعْصَابِ... نَحْنُ سَحَرَةُ الْعَالَمِ الشَّهْوَائِيِّ، نَحْنُ الَّذِينَ يُبَارِكُنَا الْعَجْزُ وَالْحِمَاكَةُ" (١٧).

وَهَكَذَا.. تَهَاوَتْ فِي نَظَرِ الْإِنْسَانِ الْغَرِيبِيِّ كُلِّ الْمُسْلِمَاتِ وَالنَّوَابِتِ فِي الْفِكْرِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِسَادِ وَالِدِينِ وَالْاجْتِمَاعِ وَسَائِرِ مَنَاحِي الْحَيَاةِ، فَاخْتَلَطَتْ لَدَيْهِ الْأَوْرَاقُ، وَبَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ مُضْطَرِبًا، بِلَا ضَوَائِبَ وَبِلَا حُدُودٍ، وَرَاحَ الْإِنْسَانُ الْغَرِيبِيُّ يَبْتَكِرُ كُلَّ يَوْمٍ فِلْسَفَةً أَوْ نَظَرِيَّةً، لَعَلَّهَا تُنْقِذُهُ مِنْ حَالَةِ الضَّيَاعِ، وَالشَّشَرُ وَالْغُرْبَةُ الَّتِي يَعِيشُهَا، وَقَدْ رَأَيْنَا - سَابِقًا - كَيْفَ تَطَوَّرَ هَذَا الْقَلْقُ، وَالْاضْطِرَابُ، إِلَى ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، مِنْ الْكِلَاسِيكِيَّةِ، إِلَى الرُّومَانِيَّةِ، إِلَى الْوَأَقِيعِيَّةِ، فَالْبِرْنَايِيَّةِ، وَالْوُجُودِيَّةِ.. (١٨). كَمَا انْهَارَ حُلْمُهُ فِي مَقْدِرَةِ الْعِلْمِ عَلَى جَلْبِ السَّعَادَةِ لَهُ، لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبُ، بَلْ اكْتَشَفَ أَنَّ الْاِكْتِشَافَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالنَّقْدِ الصَّنَاعِيِّ الْهَائِلِ، كَانَا سَبَبًا فِي انْتِكَاسَاتِ الْإِنْسَانِ الْغَرِيبِيِّ، مِمَّا وَلَدَ قَنَاعَاتٍ عِنْدَ جِيلٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ الشَّبَابِ بِأَنَّ الْحَضَارَةَ الْغَرِيبِيَّةَ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْاِنْهِيَارِ وَالزُّوَالِ (١٩)، وَلِهَذَا لَمْ يُعَمَّرْ هَذَا الْمَذْهَبُ طَوِيلًا (٢٠)، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ كُلِّ الْمَذَاهِبِ وَالْفِلْسَفَاتِ، الَّتِي صَادَمَتِ الْفِطْرَةَ الْبَشَرِيَّةَ وَنَاصَبَتِهَا الْعِدَاءَ، فَانْبَثَّتْ عَنْ عُمُقِهَا الْحَقِيقِيِّ، وَبَيَّتَتْهَا الطَّبِيعِيَّةُ، فَكَانَتْ نَعْمَةً نَشَارًا، أَوْ نَبْئَةً غَرِيبَةً وَسَطَ بُسْتَانِ الْإِسْلَامِ الْخَصْبِ، بِالْقِيَمِ وَالْمَكَارِمِ وَالْأَخْلَاقِ.

وَقَدْ لَخَصَّ صَالِحُ الطُّعْمَةُ فِي (فُصُولٍ) مَلَاحِجَ الْحَدَاثَةِ فِي النُّقَاطِ النَّالِيَةِ:

- ١-الرُّؤْيُ: أَي رُؤْيَا الْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ، وَهِيَ رُؤْيَةٌ تَتَكَيُّ عَلَى وَعْيِ بَضْيَاعِ الْإِنْسَانِ كَمَا تَرَى سَلَمَى الْخَضِرَاءِ الْجَبُوسِي، وَهِيَ لِهَذَا تُتَكَرَّرُ أَنْ يَكُونَ اسْتِعْمَالُ لُغَةٍ حَدِيثِيَّةٍ، أَوْ اسْتِلْهَامِ الْأَسَاطِيرِ، وَتَوْظِيفِهَا وَحْدَهُ مَعْيَارًا لِلْحَدَاثَةِ، فَهِيَ تَذْهَبُ أَبْعَدَ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ.
- ٢-التَّأَكُّيدُ عَلَى الْذَاتِ: وَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ الْحَدَاثَةَ تَتَّبِعُ مِنْ عَالَمِ الدَّخْلِ، وَاللَّاحِدَاثَةَ تَتَّبِعُ مِنَ الْخَارِجِ، وَيَرْجِعُ هَذَا إِلَى الْمَفْهُومِ الْأَوْرُوبِيِّ، الَّذِي يُفَسِّرُ الْأَصَالَةَ عَلَى أَنَّهَا مَا يَجِيءُ مِنَ دَاخِلِ الدَّاتِ، وَلَيْسَ مَا يَعُودُ إِلَى الْأُصُولِ الدِّينِيَّةِ، أَوْ التَّارِيخِيَّةِ، أَوْ الْاجْتِمَاعِيَّةِ.
- ٣-الزَّمَنُ: تَقْتَرِنُ الْحَدَاثَةُ فِي الْغَرْبِ تَارِيخِيًّا كَمَا يَقُولُ (كَانْسْكَو) بِفِكْرَةِ الزَّمَنِ الْأَفْقِيِّ الْمَيِّتِ اللَّامُعَادِ، الْمُنْطَلِقِ دَوْمًا إِلَى الْأَمَامِ.
- ٤-الْغَمُوضُ: حَيْثُ يُعَدُّ الْغَمُوضُ أَحَدَ أَهَمِّ سِمَاتِ الْحَدَاثَةِ وَأَبْرَزِهَا، وَفِي الْمُقَابِلِ فَإِنَّ الْوُضُوحَ لَيْسَ حَدِيثًا (٢١).

(١٧) مالْكَوْمُ بَرَادِ بَرِي، وَجِيمِسُ مَافَارْلَن - الْحَدَاثَةُ - تَرْجُمَةُ: مُؤَيَّدُ حَسَنِ فَوْزِي، ص ٤٣.

(١٨) يَنْظُرُ / د. عَدْنَانُ عَلِي رِضَا النُّحُوي - الْأَدَبُ الْإِسْلَامِيُّ إِنْسَانِيَّتُهُ، وَعَالِمِيَّتُهُ - ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(١٩) يَنْظُرُ / مالْكَوْمُ بَرَادِ بَرِي، وَجِيمِسُ مَافَارْلَن - الْحَدَاثَةُ - ص ٢٨٥.

(٢٠) كَمَا ذَكَرَ صَاحِبَا كِتَابِ الْحَدَاثَةِ (١٨٩٠ - ١٩٣٠ م).

(٢١) صَالِحُ جَوَادِ الطُّعْمَةُ - الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ وَمَفْهُومُهُ النَّظَرِيُّ لِلْحَدَاثَةِ - (مَجَلَّةُ فُصُولٍ)، ع ٤ ص ١٢.

❖ قِرَاءَةُ فِي الْفِكْرِ الْحَدَاثِيِّ:

لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْفِكْرُ مِنَ الْخَطُورَةِ مَبْلَغًا عَظِيمًا ، حَيْثُ رَاحَ مُرَوِّجُو هَذَا الْمَذْهَبِ الْمُنْحَرِفِ ، وَمِنْ خِلَالِ تَصَوُّرِهِمُ الْإِلْحَادِيَّ ، يُحَاوِلُونَ إِغْوَاءَ شَبَابِ الْأُمَّةِ وَتَضْلِيلَهُمْ ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَا يَنْفُثُونَهُ مِنْ سُمُومٍ بَيْنَ سَطُورِ إِبْدَاعِهِمُ الشَّعْرِيَّ ، يَظْهَرُ ذَلِكَ جَلِيًّا مِنْ تَسَابُغِهِمُ الْحَثِيثَ عَلَى التَّعَدِّيِّ عَلَى الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ ، وَنَعْتِهَا بِمَا لَا يَلِيْقُ - تَقْدِسَ اللَّهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَكَذَلِكَ مُحَاوَلَاتُهُمُ النَّيْلَ مِنَ الرَّمُوزِ وَالشَّخْصِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ ، لَدَى الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً ، سَوَاءً مِنَ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، أَوْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَزْوَاجِ النَّبِيِّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، فِي حِينِ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْعَرِّضُوا لِأَيِّ مِنَ الرَّمُوزِ الدِّينِيَّةِ الْآخَرَى ، بَلْ رَاحُوا يُمَجِّدُونَ كُلَّ صَاحِبِ بَدْعَةٍ ، أَوْ فِكْرٍ مُنْحَرِفٍ ، وَسُلُوكٍ شَاذٍ ، وَمِنْ الْجَدِيرِ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، أَنَّ أَوَّلَ مَعَاوِلِ الْهَدْمِ لِهَذَا الْمَذْهَبِ قَدْ بَدَأَتْ مِنْ عَقْرِ دَارِهِ الَّتِي انْطَلَقَ مِنْهَا ؛ مِنْ أَوْرُوبَا ، فَقَدْ أَتَاهُمْ عَدَدٌ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنْ رُؤَادِهَا وَمِنْ بَيْنِهِمْ : ت. س. إلبوت ، وباوند ، ولورنس ، بِالرَّجْعِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ (٢٢) .

أولاً: إِنَّ الْمُتَتَبِعَ لِكِتَابَاتِ رُمُوزِ الْحَدَاثَةِ ، وَمَا تَنْفُثُهُ مِنْ أَفْكَارٍ مَسْمُومَةٍ ، وَمُعْتَقَدَاتٍ بَاطِلَةٍ ، لَيْسَتْهُمُ رَوَائِحُ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ تَزْكُمُ الْأَنْوَفَ ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مُعَادَاةِ الْأَدْيَانِ ، وَالْخُرُوجِ عَلَى قِيَمِ السُّلْطَةِ بِجَمْعٍ أَشْكَالِهَا ؛ الدِّينِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ ، كَمَا تُقَدِّمُ الْحَدَاثَةُ نَفْسَهَا عَلَى أَنَّهَا عِلْمَانِيَّةٌ خَالِصَةٌ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ انْسِجَامٌ أَوْ سَلَامٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَيِّ مُقَدَّسٍ .

ثانياً: الْحَدَاثَةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ قَضَايَا أَدْبِيَّةٍ أَوْ نَقْدِيَّةٍ يُمْكِنُ التَّحَاوُرُ بِشَأْنِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ عَقِيدَةٌ فِكْرِيَّةٌ وَفَلَسَفِيَّةٌ ، تَطْرَحُ تَصَوُّرَاتِهَا عَنِ الْكَوْنِ ، وَالْإِلَهِ ، وَالدِّينِ ، وَالْحَيَاةِ ، "إِنَّمَا رَمَزَ لِفِكْرٍ جَدِيدٍ ، ثَوْرَةٍ عَقْدِيَّةٍ شَامِلَةٍ ، لَا تُؤْمِنُ بِثَوَابِتٍ ، وَلَا قِيَمٍ ، وَلَا مَعَايِيرٍ ، سِوَا مَا كَانَ مَصْدَرُهَا سَمَاوِيًّا أَمْ بَشَرِيًّا" (٢٣) ، وَتَسْعَى إِلَى تَحْطِيمِهَا ، لِأَنَّهَا - فِي نَظَرِهَا - رَمَزٌ لِلرَّجْعِيَّةِ وَالتَّخْلُفِ ، وَلِهَذَا فَهِيَ تَرْفُضُ أَنْ تَكُونَ الشَّرِيعَةُ وَأَحْكَامُهَا هِيَ الْمَوْجَةُ وَالْمُحَرِّكُ لِلْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ .

ثالثاً: الْغُمُوضُ وَالرَّمْزِيَّةُ وَالْإِبْهَامُ ، كُلُّهَا مَعَالِمٌ بَارِزَةٌ فِي الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ الْحَدَاثِيِّ ، وَهَذَا مَا يَتَنَافَى وَالْفِكْرَ الْإِسْلَامِيَّ الْقَائِمَ عَلَى الْبَيَانِ ، وَالْوُضُوحِ ، وَلِهَذَا .. تُمَثِّلُ اللُّغَةُ لَدَى الْحَدَاثِيِّ قُوَّةً ضَخْمَةً ، وَمَرَكَزًا مِنْ مَرَاكِزِ قُوَى التَّخْلُفِ السُّلْطَوِيِّ الْمُتْرَاكِمِ وَالْقَدِيمِ عِبَرِ الْعُصُورِ ، لِذَا يَجِبُ تَفْكِيكُهَا وَتَحْطِيمُهَا وَالتَّخْلُصُ مِنْهَا ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ التَّوْجِهَاتِ سَتَنْقُضُ مَكُونًا رَئِيسًا مِنْ مَكُونَاتِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ ، الَّذِي نَزَلَ أَسَاسًا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢٤) .

رابعاً: وَمِنْ التَّوَابِتِ الْمُهَمَّةِ لَدَى الْحَدَاثَةِ .. أَنَّهَا تَهْدَفُ إِلَى إِعَادَةِ صِيَاغَةِ الْبِنَاءِ الْفِكْرِيِّ ، وَالنَّفْسِيِّ لِلْإِنْسَانِ ، وَفَقَّ نَظَرِيَّاتٍ ، وَفَلَسَفَاتٍ اتَّفَقَتْ كُلُّهَا عَلَى تَدْمِيرِ كُلِّ جَوَانِبِ الْخَيْرِ ، وَالْفَضِيلَةِ ، وَالْجَمَالِ ، وَذَلِكَ مِثْلَ تَبْنِيِ أَفْكَارِ مَارْكِسِ الْمَادِيَّةِ الْمُجَدَّةِ ، وَنَظَرِيَّاتِ فِرْوَيْدِ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَنَظَرِيَّاتِ

(٢٢) صالح جواد الطعنة - الشاعر العربي ومفهومه النظري للحدثة - (مجلة فصول) ، ع ، ص ١٥ .

(٢٣) د / وليد قصاب - الحدثة في الشعر العربي المعاصر.. - ص ٢٤ .

(٢٤) سورة الزمر: الآية ٢٨ .

داروين في أصل الأنواع، وهذه أهداف لا يمكن بحال من الأحوال أن يُقرّها الإسلام، لأنها تتناقض مع أبسط قواعد الفكر السليم الذي يهدف إلى بناء المجتمعات بناءً إيجابياً، يعتمد على أسس الاستقرار والبناء من خلال نشر الخير والحق، والفضيلة.

خامساً: تسعى الحداثة ومن خلال كبرائها، ورؤوسها، إلى العبث والتعدي على الذات الإلهية (٢٥)، والقّدح في الرُّسل عليهم الصّلاة والسّلام (٢٦)، وتشويه الرموز الإسلامية من أمثال: عائشة زوج النبي ﷺ والصّحابة رضوان الله عليهم أجمعين؛ كعمر بن الخطّاب ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ وعثمان بن عفّان ﷺ وهارون الرّشيد، والحجّاج (٢٧) الذي هاجمه أدونيس لأنّه أحد بُناة الدّولة الإسلاميّة، التي لا تسجّم وفينيقيّة أدونيس.

خامساً: وتعتبر إشاعة الفاحشة والدّعوة إلى الإباحية والعُهر، مكوّناً رئيساً من مكوّنات قاموسهم اللّفظي المنحرف، والشّاذّ، بل والتّسابق في هذا المجال، كما هو واضح بشكل فاضح وسافر، ودون اعتبار لأيّة قيمة أخلاقيّة، أو حرمة اجتماعيّة (٢٨).

(٢٥) ينظر/ أدونيس (علي أحمد سعيد) الأعمال الشعرية الكاملة، ط٤، ج١، ص٢١٤، ٢١٣، ٢١٧، ج٢، ص٢٨٢، ٢٨٣، ٣٢٥ وغيرها.

ينظر/ محمود درويش (ديوان) ط٤، ١٩٩٤م، ص٢٥، ٢٤ وغيرها.

ينظر/ السابق نفسه: مج٢، ص٣٦١ وغيرها.

ينظر/ يوسف الخال - الأعمال الشعرية الكاملة - ط٤، ص١٠٣ وغيرها.

(٢٦) ينظر/ سميح القاسم - جهات الروح - (ديوان) ط٤، ص٥٩ وغيرها.

(٢٧) ينظر/ أدونيس (الأعمال الشعرية الكاملة) ط٤، ج٢، ص٧٣، ٨٢، ٤٢٤ وغيرها.

(٢٨) ينظر/ السابق نفسه: ط٤، ج٢، ص٣٠٣ وغيرها.

ينظر/ صلاح عبد الصبور - ديوان - ط٤، ص١٤٨ وغيرها.

ينظر/ أنسي الحاج - ماضي الأيام الآتية - (ديوان)، ط٤، ص٧٦-٧٧ وغيرها.

ينظر/ محمد الماغوط - الآثار الكاملة - ص٢١، ١٧، ١٥ وغيرها.

ينظر/ علي محمود طه - ديوان علي محمود طه - ص٤٩، القمر العاشق ص٢٣١، راكبة الدراجة ص٧٣٩.